

التوجهات الفكرية لتطوير العمارة الاسلامية

الدكتورة مشيرة الرافعي

العمارة الاسلامية تعبير تداوله كثير من المعماريين والعلماء في مختلف المجالات. ويعرض هذا البحث عدة إجابات متداولة بشأن تخصيص العمارة الاسلامية مستعرضا بأسلوب فكري وعملي بعض أمثلة للمباني الاسلامية التي مازالت موجودة بالقاهرة اليوم، كما يعرض من خلالها الارتباط الوثيق بين الثقافة والحضارة والعادات والتقاليد والطراز المعماري الاسلامي الملائم للبيئة المحيطة، ويعرض البحث التوجهات الفكرية التي تشرح الأصالة في العمارة الاسلامية والاتجاه المعاصر لتطويرها الذي بنى على أساس التجانس البيئي بين القيم الاسلامية والعادات والتقاليد والتطور الحضاري في المجتمع.

ويتناول البحث دراسة الاقتراح الفكري بين التراث الحضاري والتقدم التكنولوجي العالمي وتأثير ذلك على وجهة النظر الاسلامية في حماية البيئة وتطويرها لتلائم الاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية المعاصرة ويتناول الجزء الأول من البحث دراسة القيم الاسلامية المأخوذة من تعاليم الاسلام والمطلوب المحافظة عليها واستمرارها في عمارتنا الحالية كما يشير إلى الخواطر القرآنية في التصميم المعماري للبيئة المحيطة وكيفية ربط الفكر الاسلامي بين الشكل المادي والهئية الاجتماعية ثم يستعرض البحث القيم الاجتماعية المتوارثة في المجتمع المعاصر والعناصر المتعددة التي أثرت على التوجهات الفكرية الحديثة ويشير إلى طريقة تحليلية لقياس هذه المعايير في مختلف البلدان الاسلامية لاستخلاص نظرية محلية عن احتياجات الانسان المسلم المعاصر في بيئته المحلية مع استبقاء بعض العناصر التقليدية في العمارة الاسلامية والتي توارثت عبر الأجيال.

أولا - القيم الاسلامية المأخوذة من تعاليم الاسلام والمطلوب الحفاظ عليها واستمرارة في عمارتنا الحالية :

العمارة الاسلامية كما شرحها المهندس عبد القادر كوشك في مجلة عالم البناء، هي « في الواقع الأصح عمارة المجتمع الاسلامي في أي عصر من العصور : إذ لا يوجد شيء اسمه العمارة الاسلامية الصالحة لكل زمان ومكان لأن الاسلام لم يعطينا تعاليم محددة للتصميم أو

الفنون حتى نقول أن هذا إسلامي أو غير إسلامي، إنما هناك بعض التعاليم الإسلامية التي تؤثر على العمارة في المجتمع الإسلامي مثل : عدم استقبال القبلة أو استبدالها عند قضاء الحاجة، حقوق الجار، الخصوصية وعدم اختلاط النساء مع الرجال الأجانب، القبلة وإدخالها كعامل مؤثر في توجيه المنزل والأغراض الأخرى « عالم البناء - العدد رقم 56 - » الفكر المعماري المعاصر والمجتمع الإسلامي « أبريل 1985 ص 33).

ويسجل البحث الخصائص البيئية لعمارة المجتمع الإسلامي التي تطابق في تكوينها تعاليم الإسلام وكيفية تطور هذه العمارة عبر الأجيال المختلفة والعناصر المعمارية التي تغيرت فيها لتلائم التطور الفكري والتكنولوجي المعاصر، أي يتناول البحث دراسة التوازن بين التراث الحضاري والتقدم التكنولوجي العالمي والذي يعتبر من المشاكل المعاصرة في كثير من المجتمعات وخاصة في الدول النامية، ومن المظاهر الأساسية لهذه المشاكل مدى تكيف العلاقة الوثيقة بين القيم الاجتماعية وتصميم المسكن.

ومن هذه الدراسات، محاولة إيجاد التوازن الأيكولوجي بين الاحتياجات الحضارية والاجتماعية والنفسية للإنسان المسلم والبيئة المعاصرة المحيطة به، والدراسة التحليلية لكل هذه الجوانب وسوف تضع تصور جديد لتطوير المنهج الفكري للعمارة الإسلامية وكيفية تناسبها مع البيئة المحيطة.

من المعماريين الذين أجادوا وطوروا هذا الفكر العميق لخلق البيئة المتجانسة بين الأصالة التاريخية للعمارة الإسلامية والتطور الحضاري المعاصر، المعماري العظيم حسن فتحي الذي أبدع في أعماله وفكره المعماري وخلق وابتكاره الذي يعكس فكره في ضرورة استمرارية الحضارة الإسلامية والأصالة مع الاستمرار في تقديم الاحتياجات العصرية للإنسان، ومن المعماريين الذين درسوا وتعلموا على فكر حسن فتحي، عبد الواحد الوكيل ومن أعماله فيلا « بيت حلاوة بالعجمي » والذي راعى فيه العناصر البيئية والعادات والتقاليد المتوارثة في حفظ خصوصية المسكن، وهناك العديد من المعماريين العظماء الذين اتبعوا هذا المنهج الفكري وحاولوا جاهدين الحفاظ على الفكر الحضاري للعمارة الإسلامية في تطبيقات عصرية في العمارة المحلية ومثال لذلك المعماري عبد الباقي إبراهيم وآخرين.

ومن ثم فمن المنتظر أن يؤدي هذا البحث إلى إحياء مدارس فكرية للعمارة المحلية التي تسعى إلى بناء منهج علمي للعمارة الإسلامية في العصر الحاضر وذلك بإضافة الضوء على العقائد الإسلامية المحددة لعناصر الفكر الإسلامي وما توارث من عادات وتقاليد في المجتمع المعاصر، وربط ذلك بالاحتياجات البيئية والاجتماعية والحضارية المعاصرة في المجتمع الإسلامي الحاضر والعربي ككل، ويتم ذلك بتحليل العناصر الدينية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية والاقتصادية التي أثرت على العمارة الإسلامية وما وصلت إليه اليوم.

الخواطر القرآنية في تصميم البيئة المحيطة للانسان المسلم :

تبدأ هذه الدراسة بتسجيل الخصائص القرآنية المتصلة بالعمارة والتي تطابق تعاليم الاسلام مؤكدة العلاقة الوثيقة بين المظهر الحضاري في العصر الاسلامي وتصميم المباني وخصوصا « المسكن » من الناحية المعمارية، والاتجاه هنا يرمي إلى تحليل أوجه النظر في عدم صلاحية العمارة المعاصرة للاتجاهات الفكرية المستحدثة في المجتمع المصري.

قديمًا كانت العمارة الاسلامية أو التي اتفق على تسميتها بالعمارة الاسلامية التي تمتاز به من منهج فكري يتناسب مع العادات والتقاليد الدينية في البيئة المحيطة ومثال لذلك العناصر المعمارية التي تميز بها المسكن الاسلامي والتي كان الهدف الرئيسي منها هو حماية الخصوصية بعمل الفتحات كلها إلى الداخل حول حوض داخلي وتأكيد تعدد القاعات والعلاقات الوظيفية للفراغات للفصل بين السلامك والحرامك أو جزء الحريم وجزء الرجال والممرات المنكسرة والمشربيات، وكذلك علاقة المساكن ببعضها.

والأمثلة التي تؤكد تناسب العناصر المعمارية مع المنهج الفكري الاسلامي تصميم المساكن بمختلف أنواعها مثل المسكن الخاص - والمساكن الفندقية ومساكن الحرفيين، ومثال لذلك : بيت السحيمي ومنزل جمال الدين الذهبي وبيت القاضي، والوكالات مثل وكالة الغوري والربع مثل ربع رضوان.

ومن خلال نظرة فاحصة لهذه المنشآت الاسلامية نلاحظ ما روعي في هذه الأنماط المختلفة بعناصرها المعمارية من تقاليد إسلامية لحفظ حق الجار وحفظ خصوصية المرأة وعمل أحواش داخلية مفتوحة للاتجاه مباشرة إلى الله سبحانه وتعالى مما يظهر شيوع الصفة الاسلامية على العمارة.

كما تدل الأمثلة للمباني الاسلامية السابقة على ما تتضمنه العمارة الاسلامية من فلسفة فكرية ومنهج فكري للحياة الانسانية كما أوضحها القرآن الكريم وذلك لأن الاسلام أنزل لكل زمان ومكان، كما أن الاسلام دين عقل وفكر أنزل ملما وموجها كل التعاليم الانسانية التي من شأنها تنظيم علاقات البشر ببعضهم وبالبيئة المحيطة بهم.

وقد ورد في الكتاب الكريم عدة آيات توضح المفهوم الموضح سابقا كما ورد في سورة النحل عن أهمية السكن للانسان، قال الله تعالى « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين » صدق الله العظيم (الآية 80) وقد أوضح الاسلام كما ذكر في الكتاب الكريم كيف أن المسكن يمثل رمزا للسكينة والأمان ووجوب الاستئذان قبل الدخول لاحترام خصوصية السكان كما قال في كتاب الكريم في سورة النور « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون » صدق الله العظيم (الآية 27).

كما قال تعالى في سورة البقرة « ... وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون » صدق الله العظيم (الآية 189).

وتوضح الآية تعاليم الاسلام في تحديد كيفية تعامل الانسان المسلم مع أخيه المسلم ومراعاة حقوق واثقاء الله سبحانه وتعالى عند دخول بيوت الغير ومراعاة خصوصياتهم، كذلك حدد الاسلام بعض المعايير الاجتماعية في التعامل بالنسبة لخصوصية المرأة وكيفية تواجدها في المجتمع بزي مناسب للحفاظ عليها كما قال الله تعالى : « ... يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما » صدق الله العظيم (الآية 59).

كما حدد الاسلام سلوكيات الحياة اليومية للانسان المسلم الخاضعة للمعايير الانسانية والحضارية والتي تحفظ حقوق وخصوصية وأمان المرأة داخل وخارج منزلها.

كما يقول تعالى في سورة النور : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدین زینتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن » صدق الله العظيم (الآية 30).

وتوضح هذه الآيات ربط الفكر الاسلامي بين الهيئة الاجتماعية والمطالبة بالخصوصية في الملبس والسكن والشكل المادي وذلك في سبيل عدم الاضرار بالآخرين.

ومما يؤكد أن المسلم والمسلمة مطالبين باحترام خصوصياتهم وخصوصية الآخرين وأن الله سبحانه وتعالى فرض ذلك عليهم هو ما قاله سبحانه وتعالى في أول سورة النور لكي يؤكد أن كل ما طالب به فيها مفروض قوله تعالى في أول سورة النور : « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون » صدق الله العظيم. هذا وتدلل هذه الآيات الكريمة أن الأحكام التي ظهرت بتعاليم الاسلام والتي لها صلة بالعمارة تقضي بعدم الارتفاع بالبناء على الجيران، وعدم جرح خصوصياتهم بعمل نوافذ تطل على بيوت الآخرين وغير ذلك من المسائل الدقيقة التي تتضمن حق الجار.

ثانيا - التطور الفكري المعاصر وتأثيره على العمارة المحلية الحديثة :

تعرضت مصر منذ بداية القرن التاسع عشر ومع بداية الاحتلال البريطاني إلى عدة مؤثرات اجتماعية وثقافية واقتصادية أثرت على كل نواحي الحياة وخاصة العمارة المحلية الحديثة التي تطورت واختفت منها النواحي الفلسفية والجمالية وأصبحت تقليدا أعمى للغرب، وحيث أن مبدأ الخصوصية في العالم الغربي متصل مباشرة بالقوة إلا أنه في العمارة الاسلامية كما أوضحنا من قبل متصل بحماية خصوصية المسلم داخل وخارج المسكن مما يتضح في

تخطيط المجاورة السكنية في العصر الاسلامي حيث كان الحيز المعماري المحيط بالمسكن مناسب لاحتضان المبنى وتأمين خصوصيته للسكان المقيمين بداخله، كما كان عرض الشوارع والتخطيط المحدد لاتجاهاتها يؤكد عدم إمكانية مرور أي غريب في المنطقة السكنية لحفظ الأمان والخصوصية والاستقرار كما ساعد هذا التخطيط على خلق حيزان واحدة أعطت إحساس بالانتماء لسكان المنطقة وتماسكها في ظروف الأعياد والأحزان وغيره من التقاليد الاجتماعية والدينية المتبعة في هذا العصر، أما في عصرنا الحالي حيث الاتجاه الفكري يلجأ إلى تقليد الغرب الأعمى في حل مشكلة الاسكان دون تفهم احتياجات السكان فإن العمارة المحلية العصرية أصبحت تلائم في شكلها وعناصرها الداخلية والخارجية العادات والتقاليد الغربية التي تنادي بالتجرد من القيود ومثال ذلك ما حدث في تصميم المسكن الحديث من تغيرات داخلية، حيث أصبحت الفتحات كلها للخارج وتم إلغاء الفناء الداخلي للنواحي الاقتصادية المؤثرة وتم التغاضي تماما عما ذكر من قبل من حقوق الجار في مراعاة الارتفاعات والفتحات وغيره.

وبالرغم من وجود هذا التاريخ الثري من العمارة الاسلامية الزاهرة بالقيم الفنية والوظيفية حيث شملت العمارة الاسلامية على الزخارف والعناصر الجمالية المتعددة مع الحفاظ على الوظائف المتعددة لحماية الخصوصية المطلوبة للسكان والعناصر المناخية والبيئية، إلا أن تأثير العناصر الاقتصادية والثقافية المختلفة أدى إلى اختفاء كل هذه النواحي الجمالية والفلسفية، لذا أصبح من الضروري الآن التوقف لاعادة النظر في العمارة العصرية المحلية وعلاقتها بالاتجاه الفكري الاسلامي، خاصة مع ما نلاحظه من اتجاهات متزمنة للتيار الاسلامي التي ترتبط شكليا بالحضارة الاسلامية ومحاولة تطبيق عناصرها في المجتمع المعاصر، إلا أن هناك بعض عناصر التطرف التي ساعد وجودها عدم ملاءمة البيئة المحيطة لفلسفة الاسلام وقواعده التي حددت حقوق الانسان ولذا يجب الآن أن نحلل هذا الاتجاه الفكري المتطرف لمعرفة الاتجاهات الدينية والاجتماعية التي تعكس المقومات الحضارية التاريخية والمتطلبات المعاصرة التي ترتبط شكليا بالجذور التاريخية وضمينا بالتيار الفكري الغربي، وذلك للتوصل إلى عمارة محلية معاصرة تتمشى مع التيار الفكري المعاصر الذي يعكس المقومات الحضارية والاسلامية مع الاحتفاظ بالعادات والتقاليد المحلية، هذا وسوف يساعد ذلك الاتجاه الفكري إلى فهم واستيعاب احتياجات الانسان العربي المعاصر في المحيط العمراني الذي يعيش فيه حيث تتفاعل مقومات العلم والثقافة والمجتمع للانسان المعاصر مع التقدم التكنولوجي المتطور في مختلف البيئات المحيطة.

ثالثا - القيم الاسلامية المتوارثة في المجتمع المعاصر :

يؤكد هذا البحث أن الالمام بالأبعاد الحضارية للدين الاسلامي وآدابه وسلوكياته تعطي خلفية للمهندس المعماري لكي يصمم مباني عصرية متمشية مع البيئة المحيطة وكذلك احتياجات الانسان المعاصر السياسية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية والبيئية.

الرأي المطروح هنا هو أن تحدد هذه الأبعاد من خلال دراسات شاملة للفكر الاسلامي وتطبيقاتها في العصور الماضية وتطورها والتوصل إلى طرق العمل بمنهج الاسلام وتعاليمه في العصر الحالي وذلك لخلق عمارة ببنية محلية متلائمة مع تكنولوجيا البناء الحديثة ومع الزيادة المطردة وعدد السكان ومع التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي السائد والمتأثر بالاتجاهات الفكرية الغربية ويقول في ذلك ابراهيم هوبكنز (1977) (IBRAHAM HOPKINS) أن الأسرة العربية العصرية لم تعد تتمسك بالتقاليد الاسلامية القديمة كما كان العهد من قبل، ولكنها أيضا لم تعتنق التعاليم الغربية كاملة. ويؤكد هذا الرأي أن التغيير الكبير الذي حدث في المجتمع الحالي أدى إلى خلق متناقضات كثيرة في فكر المجتمع المعاصر وكذلك أدى إلى سيادة علاقة غير متوازنة بين القيم الحضارية في الحياة اليومية وضرورة التطور التكنولوجي والصناعي لمسايرة الاتجاه العلمي، هذا إلى جانب عدم الاهتمام بأهمية العادات والتقاليد المتوارثة في المسكن المعاصر. ولذا يطرح هذا البحث وسيلة علمية لتحليل مفهوم الاعتقادات الايديولوجية لقياس الاتجاهات الفكرية المعاصرة واختلافها ما بين اتجاهات عصرية غربية واتجاهات تقليدية مبنية على أساس المعتقدات الدينية وقواعد الاسلام وفي بحث سابق تم تطبيق مقياس « ستيفنسن » STEPHENSEN لاختبار اتجاهات الميول الغربية والاتجاهات التقليدية للمجتمع الغربي.

وبعد تطوير هذا المقياس تم تطبيقه في عدة مناطق سكنية بالقاهرة ومناطق الاسكان الحديثة والتي تم بناؤها في خلال العشرين عاما الماضية في كل من منطقة مدينة نصر ومنطقة المعادي الجديدة وقد تم عمل بحث ميداني لعدد 120 ساكن من المقيمين بالمنطقتين.

اشتمل البحث على عدد من الأسئلة التي تحدد الاتجاه الفكري للأفراد في العالم الاسلامي اليوم ومقدار التمسك بالتقاليد المتوارثة وتعارضها مع الاحتياجات المعاصرة للمجتمع الحالي، ويشمل هذا المقياس اختبار الأخلاقيات الاجتماعية وقوة توازنها بالمجتمع عن طريق العناصر الأربعة الآتية :

- 1 - النظم والقواعد الاسلامية وقوة تطبيقها في المجتمع.
- 2 - احتياج المرأة المسلمة للخصوصية في داخل وخارج المسكن.
- 3 - أهمية التكافؤ الاجتماعي بين الرجل والمرأة.
- 4 - القوانين الاسلامية المحددة لوضع وشكل المرأة في المجتمع.

ولقد نتج عن هذا البحث عدة تحليلات أكدت أهمية الخصوصية في المسكن المعاصر كقيمة اسلامية متوارثة عبر الأجيال، كما يتضح من الدراسة أن الحاجة إلى الخصوصية في الحيز البيئي المستعمل يعتبر من عناصر العمارة التقليدية التي مازال هناك احتياج كبير لها في العمارة المعاصرة ويظهر البحث أهمية وجود مبدأ الخصوصية في ضرورة عدم جرح الجار، وعدم الرؤية المباشرة من الخارج وداخل صالة المعيشة بالمسكن، والاتصال المباشر بين المطبخ والجزء الخاص بالمسكن وأهمية الفصل بين الجزء الخاص بأهل المسكن والجزء العام المخصص للزوار، وأخيرا أهمية مراعاة عوامل الأمن للمرأة داخل وخارج منزلها.

الخلاصة :

أكدت النتائج المطروحة والناجمة عن تحليل إحصائي إلى ضرورة إعادة تطبيق هذا المقياس لتحليل الاتجاهات الفكرية في مناطق متفرقة ومتعددة في جمهورية مصر العربية وفي الدول الإسلامية عامة للحصول على نتائج متعددة يمكن مقارنتها للتوصل إلى المنهج الفكري المعاصر المحدد بالتعاليم الإسلامية والعادات والتقاليد المتوارثة والتقدم التكنولوجي الحديث، وسوف يساعد هذا التحليل للفكر الإسلامي المعاصر إلى التوصل إلى أنسب الحلول المعمارية للبيئة المعاصرة والمتفكة في مضمونها مع الدين والحضارة العصرية.

وحيث أن هذا البحث قد أثبت أن العمارة البيئية توضح العادات والتقاليد المنتشرة في المجتمع المحلي، فإن إعادة التفكير في طرق تصميم المباني الإسلامية خاصة المسكن، سوف يؤدي إلى عمارة محلية حديثة متمشية مع الاتجاه الفكري الإسلامي الحديث ويجب أن نأخذ في الاعتبار القوة المقاومة للتغيير والتي تؤكد ضرورة التنازل عن المصالح الشخصية السائدة في المجتمعات المتخلفة ومثل ذلك رغبة البعض في تركيز التحضر من أجل السيطرة ومن ثم رفع الأراضي ويؤدي ذلك إلى ضرورة إعادة النظر في غلبة الفكر التقليدي ومحاربة التزمّت البعيد عن الدين.

كما يجب أن نضع في الاعتبار التقدم التكنولوجي العالمي وتأثيره على طرق البناء الحديثة وكيفية مزجها بالعمارة الحديثة مع الاحتفاظ بسمات العمارة التقليدية التي تناسب الفكر الإسلامي ولذا يوصي البحث : - باستخدام المواد والخامات البنائية الحديثة لتتّمشي مع التصميم الإسلامي دون المساس بأسس وقواعد التصميم، كما يوصي - بالاستعانة ببرامج الحاسبات الآلية الحديثة في التصميم لا مكان تطبيقها على الطراز الإسلامي معماريا من حيث التكيف الذاتي واستخدام الطاقات المتجددة واختيار أفضل الاتجاهات للحصول على أفضل إضاءة وتوزيع حراري داخل إطار علمي فني ديني مقبول.

وهكذا يجب استمرار البحث عن الفكر العصري في العمارة الإسلامية الذي يؤدي بدوره إلى خلق عمارة ببنية لكل زمان ومكان في عالم البناء حيث نصل في النهاية إلى تفاعل خلاق بين عمارة هي تكون وليدة أفكار واحتياجات عصرنا الحالي ومزجها بعمارة تكون وليدة أصل فكري وديني نابع من أساس عاداتنا وتقاليدنا المتوارثة عبر الأجيال والنابعة من السلوك الاجتماعي في إطار التعاليم الدينية والإسلامية.